عظمة الخالق في مخلوقاته

أ.د| موسى محمد الصفدي(٥)

مما لا شك فيه أن النصف الأخير من القرن الماضي قد شهد طفرة علمية وتكنولوجية هائلة فاقت كل التوقعات والحسابات وفي كافة ميادين الحياة سواء في مجال الطاقة أو الزراعة أو الصناعة أو الصحة أو البيئة أو الموصلات أو الإنشاءات إلى غير ذلك. ناهيك عن تكنولوجيا المعلومات والاتصالات والتي أصبح بفضلها الكون على رحابته قرية كونية. أما في مجال التكنولوجيا الحيوية فحدث ولا حرج فالجميع قد سمع وشاهد النعجة "دوللى" التي ولدت بالاستنساخ من خلال عملية تكاثر لا جنسي، أي لا حاجة فيها للذكور، وعن البقرة "روزى" والتي أنتجت لبناً مشابهاً للبن الأمهات المرضعات، وعن "القردة" المستنسخة مجهرياً. فهناك إنجازات علمية وتكنولوجية بلا حدود قد ساعدت في حل بعض مشاكل الغذاء والدواء، فتم استنباط نباتات ذات محاصيل وفيرة وجودة عالية، وأخرى تقاوم الحشرات. والآفات، وثالثة تقاوم الأعشاب، ورابعة تعيش في الصحراء، وخامسة تروى بماء البحر. ومن يدري فقد يتوفر لدينا في المنظور القريب قطع غيار آدمية لمن يحتاج إلى قلب أو كلية أو كبد أو مخ أو ذراع إلى غير ذلك. كل هذه الإنجازات وغيرها سواء في الإنسان أو الحيوان أو النبات أو الجماد ما هي إلا قليل من كثير مما هو موجود في هذا الكون من أسرار ومن أنظمة وقوانين تتحكم في الأشياء وتنظم سيرها، ومن خاصيات أودعها الله في مخلوقاته لتكون صالحة لما خلقت له. وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إلاّ قَلِيلا﴾الآية ٨٥ من سورة الإسراء. وإنه كلما تقدم العلم والعلماء في ذلك زادت الدلالة على عظمة ووحدانية الخالق وعلى كامل قدرته وبالغ

(٥) أستاذ بقسم علوم الحياة ـ كلية العلوم ـ جامعة الأزهر ـ غزة ـ فلسطين.

حكمته، وازدادت قوة الإيمان به وقد أشار سبحانه وتعالى إلى ذلك في قوله: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾الآية ٥٣ من سورة فصلت. وحثنا على استكشاف آياته والاستفادة منها حيث يقول سبحانه: ﴿قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾الآية ١٠١ من سورة يونس.

إن هذا الكون عامر بمخلوقاته، فكل الكائنات الحية التي تعيش على سطح هذه المعمورة من نباتات وحيوانات وإنسان، كل منها يعيش في وسط أو مكان يتناسب واحتياجاته ومقدرته على التفاعل مع مكونات الوسط الذي يعيش فيه سواء كانت عوامل فيزيائية كالضوء والحرارة والهواء والرطوبة والضغط والجاذبية...إلخ. أو كيمائية كالأكسجين والنتروجين والهيدروجين والفسفور والبوتاسيوم والكلسيوم...إلخ. أو حيوية من كائنات دقيقة أو نباتات أو حيوانات، فإن لم يستطع التلاؤم والتكيف مع ظروف الوسط الذي يعيش فيه فسوف يؤدي حتماً إلى هلاك ذلك الكائن الحي واندثاره، فسبحان من خلق هذا الكون بقدر متوازن قال الله تعالى: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾الآية ٢ من سورة الفرقان، وقال عز اسمه: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾الآية ٤٩ من سورة القمر.

والأمثلة على ذلك عديدة ومتنوعة فالحيوانات التي تعيش في الماء قد تكيفت للعيش في الوسط المائي، فهي قادرة على تنفس الهواء (المذاب أو الجوي)، وأجسامها انسيابية لتساعدها على شق الماء، ولها أعضاء تساعدها على السباحة إلى غير ذلك، فلو تم إخراج تلك الحيوانات من الماء إلى اليابسة لما استطاعت الحياة. وبالمقابل فإن حيوانات اليابسة ونباتاتها لا تستطيع العيش في الماء فهي تكيفت للعيش على اليابسة. فحيوانات الصحراء ذات ألوان فاتحة تشابه لون رمال الصحراء، ولها أطراف مهيأة

للعيش على تلك الرمال المفككة ولها القدرة على التكيف مع بيئة الصحراء الحارة...إلخ. وكذلك نجد حيوانات الغابات قد تلائمت للعيش في تلك الغابات، فألوانها متعددة تساعدها على التخفي، ولها أعضاء تساعدها على التسلق والهرب أو القفز إلى غير ذلك. كذلك نحد حيوانات المناطق الباردة فهي ذات ألوان بيضاء كالثلج ولها شعر كثيف وجلد سميك لتقيها شدة البرد. و الشيء نفسه يقال للنباتات التي تعيش في الماء أو الصحراء أو المناطق الباردة أو الغابات، كل نبات استطاع التكيف والتلاؤم مع ظروف الوسط الذي يعيش فيه. ليس هذا فحسب بل هناك علاقات متبادلة بين الكائنات الحية بعضها بعضاً سواء كانت علاقات إيجابية أو سلبية من تنافس وتطاحن وصراعات تدور بين الكائنات طلباً للغذاء أو الماء أو المأوى أو التكاثر، كل ذلك أدى إلى نشوء أنواع قادرة على التكيف مع ظروف الوسط الذي تعيش فيه وإلى استمرارية حياتها والمحافظة على أنواعها من الاندثار.

ومما لا شك فيه أن بعض الحيوانات تتعلم من آبائها أو من بعضها البعض أو من أخطائها. فالبعض له آباء يعلمانه أساليب الحياة أو التعامل معها، والبعض الآخر يتعلم من الآخرين ومن أخطائهم وهناك صنف ثالث يتعلم من تجاربه الخاصة في الحياة. فعلى سبيل المثال تجد معظم صغار الحيوانات الثديية والطيور، الرعاية والعناية من الأبوين. فالآباء تقوم بجلب الغذاء والماء للصغار وتوفر لها الحماية والأمان وتعلمهم سبل مواجهة الحياة. ورغم كل ذلك فإن لم يكن الحيوان فطناً وذكياً في التعامل للحصول على غذائه ومائه، ومأواه، ومستشعراً الظروف والعوامل المتغيرة المحيطة به، ومتنبهاً لما يدور حوله من أخطار، فإنه لا محالة هالك. ولنستعرض بعض الأمثلة على ذلك:

القطط والكلاب الضالة إن لم تكن حذرة عند قطع الطريق أو الشارع فإنها سوف تلقى حتفها من السيارات العابرة.

الحيوانات آكلة الأعشاب كالغزلان والجاموس البري والحمار الوحشي وغيرها، إن لم تكن دائماً في غاية الحذر والتنبه فإنها ستقع فريسة للأعداء، لذا تجدها في غاية الحذر والحيطة فأصبح لها وسائل حماية ودفاع معينة تعينها على التخفي والهرب، فحواسها السمعية والبصرية شديدة وجيدة وقوية، وأرجلها سريعة العدو، وقرونها طويلة وحادة...إلخ. وفي المقابل فإن الحيوانات المفترسة كالأسود والنمور والفهود...إلخ. أيضاً استطاعت أن تتكيف مع طبيعة فرائسها وحياتها فهي شديدة الحواس والترقب والعدو ولها أنياب حادة...إلخ.

الصقر عندما يتغذى على الأفعى السامة فإنه يقوم بفصل أنيابها السامة قبل أن يتغذى عليها.

طائر النورس لا يستطيع أن يكسر صدفة القواقع أو صدفة السلحفاة، لذا يقوم بإسقاطها من علو على صخرة مناسبة حتى تتهشم ويستطيع التهام أجزائها الرخوة.

حيوان القضاعة أو ثعلب الماء Otter لا يستطيع أن يكسر صدفة القوقع أو المحار فيقوم بجلب صخرة صغيرة (حجر) ويضعها على بطنه أثناء سباحته مقلوباً ومن ثم يقوم بكسر أو بضرب القوقعة أو المحار بالصخرة حتى تتكسر ويلتهمها.

تستطيع بعض القرود عند جفاف المياه، أن تشرب من الآبار، وذلك بعمل سُلَّمٍ من أجسادها؛ ليستخدمه الآخرون في الوصول إلى ماء البئر ومن ثم يتم التناوب.

النمل الذي يعمل بجد واجتهاد ودون كلل أو ملل في ادخار الحبوب والبذور طيلة أيام الصيف تحسباً لأيام الشتاء الممطرة.

فالحياة جد واجتهاد، آكل ومأكول، فالكائنات تعتمد على بعضها البعض في تناسق وتسلسل واتزان تحكم بقدرة الخالق وعظمته. فبعض الحيوانات تتغذى على حيوانات أخرى، وتلك تتغذى على النباتات، وهذه النباتات بدورها تحصل على

العناصر الأولية اللازمة لها من تحلل الحيوانات والنباتات بعد موتها. وهكذا دواليك، سلاسل متصلة لا نهاية لها إلا أن يشاء الله.

ومع ذلك فهناك حيوانات ونباتات أخرى تتجلى فيها قدرة الخالق وعظمته. فهي تستطيع التعرف والاستدلال على دروبها ومسالكها وأماكن عيشها وغذائها وتكاثرها...إلخ عن طريق ـ أن صح لنا القول ـ بوصلات كيمائية أو فيزيائية أو كهربائية أو جغرافية أو فلكية أو مغناطيسية أو ذاكرة إلى غير ذلك.

أولاً: البوصلات الكيمائية (الروائح):

هذه ظاهرة منتشرة في بعض الحيوانات كالضباع والثعالب والنمور والقرود والفئران وغيرها. تقوم الحيوانات بوضع الروائح (من غدد خاصة) على الحجارة أو النباتات أو تقوم بحك أجسامها مع تلك الأشياء؛ لتصبغها برائحتها مما يسهل عليها التعرف على أماكنها وعلى بعضها البعض، ولتكون بمثابة إنذار وتحذير للآخرين.

كذلك الحال في كثير من الحشرات التي تفرز الفرمونات؛ لتنجذب لبعضها البعض وخاصة عِنْدَ التكاثر. كما أن يرقات بعض الحشرات (الديدان) تقوم بإفراز الروائح على الأغصان لتهتدي بها.

ثانياً: البوصلات الفيزيائية (الأصوات):

تسترشد بعض الحيوانات بإصدار أصوات خاصة بها لا نستطيع نحن البشر أن نميزها مثل الخفافيش والدلافين وبعض أنواع البوم وغيرها.

ثالثا: البوصلات الكهربائية (إشارات أو ومضات كهربية):

تقوم بعض أنواع الأسماك بإصدار إشارات كهربائية تسترشد بها في مواصلة سيرها وبحثها عن غذائها. كذلك فإن بعض الحشرات لها القدرة على إصدار ومضات ضوئية تستدل وتهتدي بها في طيرانها.

رابعاً: البوصلات الجغرافية (وهاد، جبال، بحار، محيطات):

تستطيع بعض الطيور والحشرات التعرف على طرقها ومساراتها والوصول إلى أماكن غذائها وتكاثرها وذلك بالتعرف على المعالم الجغرافية كالوهاد والجبال والمحيطات وغيرها. ومثال ذلك طائر الطنان الذي يهاجر من المكسيك إلى ألاسكا في الشمال للتكاثر ومن ثم العودة. كما أن هناك أنواعاً من الحشرات الأفريقية (الزنابير wasps) تهاجر من أفريقيا إلى بريطانيا طلباً للوصول إلى غذائها المفضل من عسل النحل ومن ثم العودة إلى أفريقيا قاطعة آلاف الكيلومترات ذهاباً وإياباً.

خامساً: البوصلات المغناطيسية (الجاذبية):

قد يعجب الإنسان من هجرة الاستاكوزا التي تعيش على القيعان الرملية في البحار اليابانية. فعند اضطراب المياه واشتداد الأمواج فإنها تلجأ للهجرة بحثاً عن أماكن هادئة وآمنة حيث تصطف في طوابير طويلة تصل إلى عشرات الأمتار بادئة رحلتها الطويلة غير عابئة بالمخاطر التي تتهددها أثناء رحلتها من أمواج عاتية وصخور ومتاهات وأسماك وحيوانات مفترسة. تستمر في رحلتها قاطعة مئات الكيلومترات حتى تصل إلى الأماكن الهادئة الآمنة. هل حقاً أنها تسترشد في هجرتها بالمغناطيسية أي الجاذبية؟

سادساً: البوصلات الفلكية (نجوم، كواكب، مجرات):

يعتبر طائر الخرشنة من أوضح الأمثلة على ذلك، فهو يقطع في رحلة الشاقة والطويلة آلاف الكيلومترات (أكثر من ثلاثين ألف كيلومتر ذهاباً وإياباً) من القطب الجنوبي حتى القطب الشمالي ومن ثم العودة. يستطيع هذا الطائر أن يتعرف على مواطن تكاثره وإقامته مهتدياً في رحلته بالنجوم والكواكب وغيرها لأنه يواصل رحلته ليل نهار؟. فكيف يهتدي في الأيام الملبدة بالغيوم؟.

هناك أنواع أخرى من الطيور تهاجر من المناطق الشمالية إلى المناطق الجنوبية طلباً للدفء والغذاء ومن ثم العودة قاطعة آلاف الكيلومترات خلال رحلتها الطويلة. من يا ترى يرشدها لذلك؟ هل هي الكواكب والنجوم والمجرات؟ أم الله؟

سابعاً: بوصلات الذاكرة:

هناك طائر يعرف بطائر البندق (لأنه يتغذى على ثمار البندق واللوز وما شابهها) يقوم باختزان وادخار تلك الثمار ويعمل على تخبئتها في أماكن متعددة. ويستطيع العودة إليها والتعرف على أماكنها وإن طالت به الغيبة لأكثر من عام.

كذلك تفعل بعض أنواع السناجب، حيث تختزن الغذاء في تجاويف جذوع الأشجار وثقوبها ومن ثم تعود إليها وقت الحاجة لها.

ثامناً: بوصلات ميكانيكية (اللمس):

كما نعلم أن بعض الحيوانات مثل الأسود والنمور والضباع والذئاب...إلخ تتغذى على اللحوم وذلك بافتراس الحيوانات الأخرى، وهذه الحيوانات المفترسة مجهزة بأساليب مختلفة تمكنها من صيد فرائسها ومن ثم تمزيق لحومها بأنيابها البارزة والحادة. وبالمقابل فإن هناك أنواعاً من النباتات مثل كأس القناص وورد الشمس (الدروسيرة) وخناق الذباب، يقوم بالتغذية على الحيوانات الصغيرة كالحشرات والضفادع وغيرها. وقد صنعها الله فأحسن صنعها وزودها بوسائل مختلفة للصيد ومن ثم هضم فرائسها.

هل تعلم بأن نبات كأس القناص قد تحورت أجزاء من أوراقها لتصبح بمثابة كأس أو إبريق له غطاء. وعندما تقف الحشرة على فوهة الكأس فإنها تنزلق للداخل ويقفل الغطاء، وعندما تحاول الحشرة الخروج فإن الأهداب المبطنة للكأس تعمل على إنزالها للداخل وعدم خروجها. وتستمر الحشرة في محاولاتها للخروج من الكأس إلى أن تنهك قواها وتستقر في قاع الكأس ومن ثم تفرز عليها الأنزيمات الهاضمة للبروتينات حتى يتم هضمها وامتصاصها.

وهل تعلم بأن نبات ورد الشمس قد تحورت أوراقه لتصبح أشبه بالوردة وفي الوقت نفسه قادرة على صيد الحشرات. فعندما تحط الحشرة على الورقة وملامستها لبعض الأجزاء فإن اللوامس المحيطة بالورقة تبدأ في الانثناء لتقفل على الحشرة وتمنعها من الهرب، ومن ثم تفرز الأنزيمات لهضم بروتينات الحشرة وامتصاصها.

وهل تعلم بأن نبات خناق الذباب قد تحورت أوراقه لتصبح أشبه بالمفصل. فعند سقوط الحشرة أو الحيوان الصغير على هذه الورقة فإنها تقفل مصراعيها على الفريسة وتمنعها من الهروب، ومن ثم تفرز عليها الأنزيمات الهاضمة للبروتينات لكي يتم امتصاصها.

قد يقال في كل ذلك بأن هذه المخلوقات تستطيع الاهتداء والاستدلال على طرقها ومسالكها وأماكن عيشها وأماكن غذائها وتكاثرها من خلال بوصلات أو ساعات (بيولوجية) حيوية أو من اكتساب الخبرات من الآباء والأجداد والأقران أو الغير، ولكن من هداها إلى كل ذلك غير الله عز وجل القائل في كتابه الكريم: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾الآيات ١ ـ ٣ من سورة الأعلى.

والآن دعنا نترك كل هذا وذاك ونستعرض بعض الأمثلة الخارقة والمعبرة عن قدرة الخالق وعظمته في مخلوقاته، والتي مازال يقف العلم حائراً ومكتوفاً أمامها لا يجد لها تفسيراً علمياً مقنعاً سوى الاعتراف بقدرة الله جل جلاله وعظمته.

يسرنا أن نستعرض بعض الأمثلة من الإنسان نفسه ومن النباتات وكذلك الحيوانات التي لم تر لها آباء أو أجداداً أو تسمع بأن لها أقراناً.

أولاً: عظمة الخالق في الإنسان:

الإنسان كله دليل على قدرة الله سبحانه وتعالى وعظمته ووحدانيته، ولقد أعظم تكريمه، وهل هناك أعظم من أن تسجد الملائكة للإنسان؟ إذ أمر الله ملائكته بالسجود له، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ

مِنْ الْكَافِرِينَ﴾الآية ٣٤ من سورة البقرة. فأصبغ عليه نعمه التي لا تعد ولا تحصى، فهبة العقل والصحة والمنظر والبصر والسمع والشم والتذوق والحس والقدرة على الكلام والمشي والحركة وتركيب الأنسجة والأعضاء والأجهزة وتناسقها وتآزرها لأداء وظائفها بإتقان وكفاءة فائقة إلى غير ذلك. كلها أدلة واضحة على صنيع المولى وعظمة الخالق لا ينكرها إلا جاحد أو كافر، قال الله عز وجل: ﴿يَاأَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾الآيات ٦ ـ ٨ من سورة الإنفطار، وقال تعالى: "ألم نجعل له عينين ولساناً وشفتين" (البلد: ٨ـ٩)، وقال عز اسمه: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾الآيتان ١١٥، ١١٦ من سورة المؤمنون.

دعنا نلقي نظرة فاحصة على تركيب بطانة الجهاز التنفسي، لنرى مدى العناية الإلهية التي أودعها في هذا التركيب المتقن.

يبطن القصبة الهوائية والشعبتان والشعيبات الهوائية بطانة (خلايا) مهدبة مخاطية تفرز بعض خلايا البطانة المادة المخاطية التي تعمل على ترطيب الهواء الحار الداخل للرئتين أثناء الصيف، كما تعمل على تدفئة الهواء البارد الداخل للرئتين أثناء البرد. وتعمل على تنقية الهواء الداخل للرئتين مما علق فيه من ميكروبات ودقائق الغبار والأتربة والدخان إلى غير ذلك، وذلك بالتصاق تلك الميكروبات والمواد الغريبة في المادة المخاطية بحيث يصل الهواء إلى الرئتين نقياً تماماً. تعمل الأهداب بعد ذلك على طرد أو دفع المادة المخاطية وما علق بها من مواد غريبة إلى خارج الجهاز التنفسي. أي بدءاً من الشعيبات فالشعبتان فالقصبة فالأنف أو الفم فالخارج.

والآن إذا تفحصنا عدد الأهداب بكل خلية من خلايا بطانة الشعيبات فالشعبتان، فالقصبة الهوائية، لوجدنا أن عدد الأهداب في كل خلية يتناسب طردياً مع حجم المادة

المخاطية، فحجم المادة المخاطية يكون صغيراً جداً في الشعيبات، ثم يكبر حجمها تدريجياً كلما صعدت إلى الشعيبات فالقصبة الهوائية. وعليه نجد عدد الأهداب يتدرج في الزيادة من الشعيبات فالشعبتان فالقصبة الهوائية؛ ليتناسب مع زيادة حجم المادة المخاطية وما علق بها من مواد غريبة. يا ترى من الذي أتقن هذا الصنع؟ أيوجد غير الله؟ جل علاه، وقد صدق الله حيث قال: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾الآية ٥٣ من سورة فصلت.

وهنا يحق لي أن أتساءل بالله عليكم كيف يكون حالنا لو أن الله سبحانه وتعالى جعل بني البشر يختلفون في خاصية أخرى غير لغة الكلام؟ مثلاً لو اختلفنا في رؤية الأشياء أو سمعها أو تذوقها أو حسها أو شمها.

لقد جعلنا نختلف في خاصية واحدة فقط، ويوجد مئات اللغات التي يصعب على الإنسان حصرها وليس تعلمها. أليس هذا من حمد المولى على الإنسان؟ قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾الآية ٢٢ من سورة الروم.

ثانياً: عظمة الله في النبات (مثل نبات الهالوك)

يعتبر نبات الهالوك من النباتات الزهرية كاملة التطفل والتي تتطفل على نباتات زهرية أخرى تعرف بالعائل. يحصل نبات الهالوك على ما يلزمه من غذاء وماء وعناصر مختلفة من النبات العائل. بذور الهالوك صغيرة جداً فهي أشبه بدقائق الدقيق (الطحين) تسقط في التربة وتظل فيها لعدة سنوات طالما أنها بعيدة عن جذور النبات العائل. وعندما تكون بذور الهالوك على مقربة (مسافة معينة) من جذور العائل فإن البذرة تدرك ذلك، وتبدأ في الإنبات مرسلة جذورها باتجاه جذور العائل حتى تلتصق بها، فتفرز ممصات تنغرس في أنسجة جذر العائل حتى تصل إلى أنسجة خشب ولحاء

العائل نفسه، مما يعمل على إضعاف وذبول بل وموت العائل نفسه وبالمقابل فإن نبات الهالوك ينمو ويزهر وتنضج بذوره قبل أن يموت العائل. وهكذا تتكرر دورة الحياة.

والآن من الذي عَرَّفَ بذور الهالوك أنها على مقربة من جذور العائل، قال تعالى: ﴿وَقُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا﴾الآية ٩٣ من سورة النمل.

ثالثاً: عظمة الخالق في الديدان المتطفلة (مثال ديدان الفلاريا الخيطية):

تنتقل العدوى للإنسان السليم من إنسان مصاب بمرض الفلاريا بواسطة نوع من البعوض يكون حاملاً ليرقات المرض المعدية والتي يبلغ طولها حوالي ١,٤ مم. تنتقل اليرقات البالغة عبر الأوعية الدموية فالأوعية اللمفاوية فالعدد اللمفاوية وهناك تلتف وتظل في الغدد حتى تتحول إلى ديدان بالغة. يبلغ طول الأنثى حوالي ٨ سم والذكر حوالي ٤ سم والسمك حوالي ٠,٣ مم. تعيش الديدان البالغة في الأوعية اللمفاوية وإذا كانت أعدادها كبيرة فإنها تعمل على انسداد تلك الأوعية خصوصاً في الأطراف مما يؤدي إلى تضخم الأطراف بشكل كبير مع انثناءات الجلد، نظراً لتضخم الأطراف وخاصة السفلي وتشبيهها بأطراف الفيل فإن المرض سمي بمرض الفيل. تتزاوج الديدان البالغة وتضع الإناث المخصبة أعداداً كبيرة من اليرقات غير البالغة، والتي لا تتحول إلى ديدان بالغة إلا إذا انتقلت إلى العائل الثاني وهو البعوض. لذا فإن اليرقات غير البالغة تنتقل أثناء الليل إلى الشعيرات الدموية السطحية بالجلد كي يتمكن البعوض من امتصاصها مع الدم عند لدغه للإنسان المصاب لامتصاص دمه. تسير اليرقات غير البالغة مع الدم (غذاء البعوض) من خرطوم البعوضة إلى معدتها ومن ثم تخترق جدار المعدة لتصل إلى العضلات الصدرية للبعوضة حيث تنمو بداخلها حتى تتحول إلى اليرقات البالغة المعدية. وعندئذ تترك اليرقات البالغة العضلات الصدرية حتى تصل إلى خرطوم البعوضة ومنه مع اللعاب إلى الإنسان، وهكذا يتم انتقال المرض وتتكرر العلمية.

والآن من الذي ألهم هذه اليرقات غير البالغة لتتحرك وتنتقل إلى الشعيرات الدموية السطحية في الجلد كي يتمكن البعوض من امتصاصها مع الدم؟ ومن الذي عرفها بأنها لن تنمو وتصل إلى ديدان بالغة إلا إذا انتقلت إلى العضلات الصدرية للبعوض؟ ومن الذي أخبرها بأن البعوض لا يستطيع الوصول إليها طالما أنها بالأوعية الدموية واللمفاوية الداخلية؟ ومن أرشدها أن البعوض ينشط ليلاً وليس نهاراً؟ الله وحده، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ * وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾الآيتان ٣، ٤ من سورة الجاثية.

رابعاً: عظمة الخالق في الحشرات (مثال حشرة أسد النمل):

تشبه حشرات أسد النمل إلى حد ما، حشرات الرعاشيات أو اليعسوبيات Dragon flies وهي حشرات صغيرة يبلغ طولها حوالي ٥-٧سم. تتغذى على الحشرات الصغيرة وخاصة النمل، ومن هنا جاءت تسميتها بحشرات أسد النمل.

تضع الإناث المخصبة البيض في الرمال أو التربة المفككة، ويفقس البيض المخصب عن يرقات عديمة الأجنحة يبلغ طول البالغ منها حوالي ١,٥سم وعرضها حوالي ٠,٨سم. تقوم اليرقات بعمل حفر مخروطية الشكل (أي مصائد)، يبلغ قطر فوهة الحفرة حوالي ٤-٥سم وعمقها حوالي ٣-٤سم. تظل اليرقة مختبأة أسفل قعر الحفرة وفي سكون تام منتظرة سقوط إحدى الحشرات (الفرائس) في الحفرة مثل النمل والعناكب وغيرها من الحشرات الصغيرة. تحاول الحشرة الخروج من الحفرة، ولكن نظراً لتفكك رمال الحفرة فإنها كلما حاولت الحشرة الخروج انزلقت من أسفل أرجلها حبات الرمل المفككة، عندئذ تقوم يرقة أسد النمل بقذف الحشرة(الفريسة) بوابل من ذرات الرمال، ويظل الأمر كذلك محاولة الخروج والقذف بذرات الرمال حتى تنهك الفريسة وتسقط في قاع الحفرة (المصيدة) ومن ثم تقوم يرقة أسد النمل بغرس فكوكها القوية في جسم الحشرة (الفريسة) وسحبها إلى داخل التراب ومن ثم القيام بامتصاص عصارات جسمها.

يرقة أسد النمل خرجت من البويضة بداخل التراب ولم ترَ أو تشاهد آباءها ولم تسمع بأقرانها. يا ترى من ألهمها أن تتصرف هذا التصرف الغريب والعجيب؟ وأن غذاءها مكون من الحشرات والعناكب وغيرها ولابد من عمل مصيدة بهذا الشكل؟ الله وحده، قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾الآية ٦ من سورة هود.

خامساً: عظمة الخالق في الأسماك (مثال: ثعبان السمك النهري):

يعيش في النيل وغيره من الأنهار الأوروبية أنواع مختلفة من ثعابين السمك، ذات أجسام طويلة أسطوانية، يبلغ طولها حولها ١٢٠سم. عندما تبلغ الإناث والذكور فإنها تبدأ رحلة التكاثر وهي رحلة طويلة وشاقة تستغرق حوالي ٣سنوات في الذهاب. تتحرك الذكور والإناث البالغة لتترك أعالي الأنهار (النيل والأوروبية) إلى مصباتها ثم البحر المتوسط فمضيق جبل طارق فالمحيط الأطلسي وتستمر في هجرتها إلى أماكن تناسلها في المحيط الأطلسي بالقرب من جزر برمودا Bermuda، وهناك تتجمع الذكور والإناث الأفريقية والأوروبية وتضع الإناث البيض وتموت، وكذلك تضع الذكور الحيوانات المنوية وتموت.

يخصب البيض ويفقس عن يرقات صغيرة مجهرية ليس لها آباء أو أمهات تنتظرها، ومن ثم تبدأ رحلة العودة إلى مواطن الآباء والأجداد قاطعة المحيط الأطلسي فمضيق جبل طارق فالبحر المتوسط فمصبات الأنهار ومن ثم إلى أعالي الأنهار. وتستغرق رحلة العودة أيضاً حوالي ٣سنوات.

أليست هذه رحلة عجيبة وغريبة تستحق كل التفكير والتأمل والتخيل والتدبر في عظمة الخالق سبحانه وتعالى. يرقات صغيرة مجهرية لا حول لها و لا قوة تنمو وتكبر وتسبح قاطعة آلاف الكيلومترات متجهة إلى مواطن الآباء والأجداد بدون دليل أو مرشد سوى الله.

يا ترى من الذي أرشدها لذلك؟ فالأصول الأفريقية تعود لنهر النيل والأصول الأوروبية تعود للأنهار الأوروبية. أليس هذا من صنع الله وحده؟

سادساً: عظمة الخالق في الزواحف (السلحفاة البحرية الخضراء ميداس):

تعتبر السلاحف من أدنى المخلوقات الزواحف رقياً. يعيش بعضها على اليابسة والبعض الآخر عاد للعيش في المياه سواء العذبة أم المالحة، ورغم معيشتها في الماء إلا أنها تتنفس الهواء الجوي بواسطة الرئات ولم تستغنِ عن اليابسة، فهي تخرج من المياه العذبة أو البحار والمحيطات لوضع البيض المخصب في رمال الشواطئ.

ويبلغ طول السلحفاء البحرية الخضراء أكثر من ١٥٠سم وتزن حوالي ٩٠-١٠٠كجم، وتصطاد من أجل لحومها، وهي الآن من الأنواع المحمية عالمياً.

تخرج الإناث لوضع البيض المخصب في الليالي المظلمة وتتجول على رمال الشاطئ حتى تجد المكان المناسب، والآمن ومن ثم تقوم بعمل حفرة يبلغ عمقها حوالي ٦٠-٨٠سم ثم تضع الأنثى البيض الذي يصل عدده حوالي ١٥٠ بيضة في المرة الواحدة. البيض أبيض اللون كروي الشكل ذو قشرة مرنة حتى لا ينكسر البيض أثناء وضعه وارتطامه مع بعضه البعض.

تقوم الأنثى بدفن الحفرة بعد الانتهاء من وضع البيض ومن ثم تعود للماء تاركة البيض بدون أي رعاية أو حماية عند فقس البيض تستطيع السلاحف الصغيرة الخروج من الحفرة وتتجه مباشرة إلى البحر.

يا الله! لا آباء ولا أمهات ولا أقران، تخرج الصغار من البيض وتتجه مباشرة إلى ماء البحر. وقد يكون العش بعيداً عن ماء البحر بأكثر من ١٠٠م وقد يكون الماء العذب أقرب للعش من الماء المالح ورغم ذلك تتجه صوب البحر. يا ترى من أرشدها لذلك؟ الله وحده.

سابعاً: عظمة الخالق في الطيور (طائر اللقلق الابديمي):

يعيش طائر اللقلق الابديمي على ضفتي الجزء الجنوبي من البحر الأحمر (اليمن في الشرق، والصومال وكينيا وأثيوبيا في الغرب). يبلغ طول الطائر حوالي ٨٥سم وارتفاعه حوالي ٨٠-٨٥سم، والذكور تشبه الإناث. ولون ريش الرأس والعنق والصدر والذيل والظهر والأجنحة أسود، أما لون ريش الجزء الخلفي من الظهر والأرداف والبطن وغطاء الأجزاء الداخلية من الأجنحة والذيل فهي بيضاء اللون. اللون بوجه عام أسود ذو بريق معدني يتداخل معه اللون الأخضر والبنفسجي والأرجواني. المنقار رمادي مخضر وقمته حمراء. الأرجل رمادية خضراء ما عدا المفاصل فهي أرجوانية. لون جلد الخدود مزرق، لون الذقن وحول فتحتي الأنف والأعين أحمر. توجد بقعة بيضاء في مقدمة الرأس. يبني الطائر أعشاشه على أسطح منازل القرويين في تهامة اليمن أو على أعمدة كهرباء الضغط العالي أو على أسطح المنازل الكبيرة القديمة المهدمة وجدرانها. أي تبنى الأعشاش معرضة لأشعة الشمس مباشرة وبالقرب من مصادر الماء؛ لأنه يتغذى على الأسماك والضفادع والحشرات كالجراد وخلافه والسحالي وغيرها.

تضع الأنثى ما بين ٣-٥ بيضات بالتتالي، وتستغرق فترة حضانة البيض حوالي ٢٨-٢٩ يوماً. يفقس البيض في أوائل شهر أبريل تقريباً وتخرج الصغار عارية وضعيفة ولكنها مفتوحة العينيين وجسمها مغطى بزغب أسود وجلدها رمادي مزرق. تستمر رعاية الصغار وإطعامهم حتى بلوغ سن الطيران وذلك في نهاية الأسبوع الثامن.

لا ترقد الأنثى على البيض إلا بعد الانتهاء من وضعه كاملاً. ونظراً لأن العش معرض لأشعة الشمس الحارة فإن أحد الأبوين يظل في رعاية البيض؛ بهدف تظليله من شدة حرارة الشمس ولحمايته من الطيور الجارحة. يلاحظ أن الآباء تتحرك مع حركة الشمس كي تستمر في عملية تظليل البيض إلى أن يتم الرقود عليه. كذلك تتم عملية

الرعاية والتظليل حتى منتصف الأسبوع الثالث أو نهايته من عمر الصغار، بحيث تكون قد أصبحت قادر على تحمل حرارة الشمس لأن جسمها أصبح مكسواً بالريش.

ألا يحق لنا أن نتساءل من علم هذه الطيور هذا التصرف الإنساني الأبوي؟ ليس هذا فحسب ولكن:

في أحد الأيام عندما كنت أقوم بمراقبة هذا الطائر فقد شاهدت سلوكاً وتصرفاً إنسانياً لا يكاد العقل يصدقه. كان اليوم حاراً جداً، وكان الوقت بعد الظهيرة وقد سجلت درجة الحرارة أكثر من ٥١ درجة مئوية في الظل. فما كان من الآباء إلا أن قاما بإحضار الماء من النهر في أفواههم ومن ثم سكبه على صغارهم؛ كي يلطفوا من درجة حرارة أجسام الصغر.لقد كنت في غاية الاندهاش والاستغراب وفي غاية التعجب من هذا السلوك الإنساني الأبوي والذي لم يسجل بعد قط في أي طائر آخر.لقد حمدت المولى على ما أودعه في هذا الطائر من سلوك فريد وحميد. ترى من علم طائر اللقلق هذا التصرف؟ الله وحده. هناك تصرف آخر يتعجب له الإنسان يصدر من صغار طائر الشنار (الحجل) حيث تكون الصغار في بداية عهدها غير قادرة على الطيران وتكون ألوانها إلى حد ما مشابهة للون الوسط الذي تعيش فيه.فإذا ما فوجئت الصغار بعدو كالإنسان فإنها:

- تنقلب على ظهورها.
- تنكمش واضعة رؤوسها بين أرجلها المنكمشة.
- تحمل كل رجل طوبة صغيرة أو مجموعة من القش(حسب الوسط أو المكان الذي توجد فيه).
- تظل ساكنة بلا حراك فلا يستطيع أحد أن يشاهدها أو يميزها على الإطلاق؛ لأنها أصبحت كأنها قطعة من الوسط نفسه الذي توجد فيه. وهذا سر إلهي يستخدمه الحيوان؛ لكي يتخفى عن أعين الأعداء.

من ألهم هذا الطائر الصغير هذا السلوك الفريد؟ الله وحده.

وخلاصة القول من علم هذه المخلوقات ذلك؟ هل درست في المعاهد والجامعات؟ هل تتلمذت على أيدي الفلاسفة والعلماء؟ هل درست الفلك والجاذبية والمغناطيسية والكهربائية والكمبيوتر والإنترنت؟ من فعل ذلك؟ من أرشدها؟ من ألهمها؟ من أودع فيها هذه الخاصيات الفريدة والعجيبة والتي يعجز الإنسان عن القيام بها، وعجز عن إيجاد التفسير العلمي لها.

نقول لا يوجد سوى الله، القدير العليم. فهو الذي علم الإنسان والحيوان والحشرات والمخلوقات جمعاء، جل جلاله وعظمة قدرته. وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ۞ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾.